عليّ
المثل الأعلى
في الاسلام ..

للاستاذ أديب التقي(*)

«ماذا يريد الناس مني أن أقول في رجل أخفت أعداؤه فضائله حسداً ، وكتمتها أولياؤه خوفاً وحذراً فظهر من بين ذَين ما ملأ الخافقين !»

هذا ما أجاب به العلاّمة الزمخشري قبل ثمانية قرون حينما سئل عن علي ابن أبي طالب .

وقد حاولت كثيراً أن أجيب سائلي عن «عليّ» بخير من هذا الجواب فلم أفلح !

إنّ علياً هو المثل الأعلى للإسلام ، المثل الأعلى الذي أراد مؤسس الإسلام أن يعمل للبلوغ إليه المسلمون . . هو المثال العملي المشخص لتعاليم محمد بن عبد الله ، هو الصورة الحسيّة للأوصاف المجردة التي أرادها الإسلام للمسلم الكامل ، المسلم الحر الحي ، المسلم الحقيقي . .

إنّ علياً جماع الفضائل التي لو تمثلت بشراً سوياً لما عدته . . وكما صوّر الإغريق القدماء الجمال الكامل ممثلاً في «فينوس» كذلك صوّرت القدرة الفاطرة الرجولة الكاملة والفضيلة والإنسانية ممثلةً في «علي» ، ظاهرة فيه اتم الظهور ومتجلية أحسن التجلي .

إنك لا تجد في «فينوس» غير الجمال الخالص القائم في الانوثة الذي لا سبيل إلى تعييبه وتزيفه ، وكذلك لا تجد في «علي» غير الكمالات البشرية المعرّاة عن النقائض والشوائب والعيوب ، القائمة على أسس الفضيلة العالية للأخلاق ! .

«علي» جوهرة صنعها الخالق وصاغها محمد فازدان بها عقد العروبة والاسلام ، واستضاءت بلألائها المشع الأجيال والأحقاب . مثل أعلى في كل ما هو سامٍ بعيد المنال :

---

* من كبار ادباء القطر العربي السوري (دمشق ١٣١١ - ١٣٦٤هـ/١٨٩٣ - ١٩٤٥م)

علم ، شجاعة ، كرم ، زهد ، ورع ، حكمة ، أخلاق ، فضيلة ، عمل ، جهاد ، بناء ، إنشاء ، تضحية ، إنسانية كاملة حقيقية ! .

لسنا بصدد إيراد الشواهد وسرد البراهين . إنَّ كتب السير والتوراريخ الموثوقة ، والمأثورات الصحيحة كفتنا ذلك :

١ ـ كان السابق إلى الإسلام ، وهو غلام يافع .
٢ ـ حمى محمداً والإسلام في أشد المواقف خطراً على محمد والإسلام .
٣ ـ كانت ضربته يوم الخندق باعثة الإسلام مرةً ثانية .
٤ ـ كان ربانيَّ أمة محمد وفيلسوف الإسلام الأعظم .
٥ ـ كان أوَّل من فتح باب التفكير في الإسلام .

هو الذي ناقش قضايا الدين وأمور الاعتقاد على نور العقل ، وهو الذي أعلن ان الإيمان الكامل الصحيح لا يكون إلَّا عن طريق العقل ، ولذلك كان إمام المتكلمين وشيخ جميع الفرق المفكرة المستنيرة بضياء العقل في المسلمين . وهو القائل : «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً ! .» ، والقائل وقد أشار إلى صدره : «ها إنَّ هاهنا لعلماً جمّاً لو أصبتُ له حَمَلَة !» ، والقائل : «بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويِّ البعيدة . .»

لم يكن تعظيمي علياً للنصوص الدينية الورادة فيه ولأنني مسلم فحسب . . وإنما تعظيمي له لأنه ذو صفات شخصية عالية ومواهب منقطعة النظير . . إنه مثال الكمال البشري ! هو الانسان الكامل بجميع معاني الكمال السامية .

إن جميع تعاليم محمد ترمي إلى انتشال الانسان من النقائص ، تريد أن تجعل من الانسان الناقص ، الانسان البهيمي ، إنساناً كاملاً . . وجميع مساعي محمد كانت منصرفة إلى هذا . وليس القرآن وأحاديث الرسول سوى مجموعتي نصوص تُصعِد الانسان مراقي هذا الكمال الانساني . وقد حلَّق «علي» إلى ذروة من هذا الكمال لم يستطع لحاقه فيها لاحق ؛ ولو لم يرد عن الرسول أي حديث أو إشارة في علي ، ولو سكت القرآن عن أي تلميح إلى فضله ؛ لكان لي من صفاته العالية وأخبار عبقريته السامية ما يكفي لحملي على تعظيمه ورفعي إياه فوق كل رفيع .

لقد ضحىٰ وفادى من أجل مبادئه العالية التي تلقنها من محمد : ضحىٰ بماله ونفسه وروحه . . ضحىٰ بأهله وعشيرته وولده ودنياه ! .

هو لم يكن يطلب الملك الذي طلبه الاسكندر وكسرى وقيصر ولم يطمح إلى التاج الذي طمح اليه «سزار» و «بونابرت» و «معاوية» و «ابو جعفر» . . لقد فضَّل على هذا الملك شسع

نعله يوم قال لابن عمه عبد الله بن العباس : «إن هذه النعل لأحبُّ إليَّ من إمرتكم إلاَّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً . .» ، ولو شاء أن يكون صاحب تاج ورب صولجان وعرش لما كان له من مواهبه وصفاته مايحجز بينه وبين ذلك .

إنه لم يرد أن يخضع له الناس ويهابوه جباراً من الجبارين وطاغوتاً من الطواغيت . . إنما كان يريد أن يدين الناس جميعاً بدين الفضيلة ويعظموا من شأنها بقدر ما يحتقرون من شأن الرذيلة والنقيصة .

يريد أن يمشي بالإنسان إلى طرق الكمال وسبل الترفع عن البهيمية ، خطة محمد في قرآنه، وسيرته وأعماله . . (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق !) .

لقد أخطأ هؤلاء العلماء والكتاب الذين يدافعون عن «علي» ليجعلوا منه رجلاً سياسياً بالمعنى المفهوم من السياسة والسوَّاس . لم يكن «علي» سياسياً بهذا المعنى ! هو رجل الأخلاق والفضيلة . . وهذان لا صلة لهما بالسياسة . . السياسة لا تتعرف على شيء اسمه فضيلة وأخلاق . . هي تتابع سيرها في مجرى يوصلها إلى الغرض والغاية سواء اعوجَّ أم استقام ، انحرف عن الفضيلة أوجاراها ، ماشى الحق والعدل أو تجانف عنهما !

ولو كان هدف «علي» السيطرة والسلطان والحكم والقسر ، كما يعمد إلى ذلك بناة العروش ومؤسسو الممالك لما كان ينقصه موهبة كمواهب هؤلاء ولا عقل كعقولهم أو تدبير كتدبيرهم . . لكن اختلفت الغاية فاختلفت الوسيلة !

إن هذه المسالك السياسية التي يعدها غواتها مزايا ومناقب قاصرةٌ عن أن تقود البشر إلى الفضيلة والكمال . . وانما قادته إلى الخراب والدمار وذوبان بعضه في مطامع بعض . . وهي عاجزة عن أن تضمن للناس الراحة والهناء والسعادة ! وقد رأينا باعيننا ، ونحن أبناء لهذا القرن ، ما جرتّه على البشر والانسانية سياسات الدول الملتوية وما تتبطنه من دسائس وخدع وسفك دماء أبرياء ، وتسلط على ضعفاء وغصب حقوق . . وإفناء شعب لمصلحة شعب وقتل نفس لشره نفس !

والإسلام دين إنساني لم يجيء لتشجيع هذه الوصمات الانسانية وترويجها باسم السياسة الزائف ، ولم يجز إشهار السلاح إلاَّ للدفاع عن بيضة الاسلام وإعلاء كلمة الله والحق والعدل التي جاء بها وحضَّ عليها ، وذلك للقضاء على الوثنية في العالم وإحلال فكرة التوحيد الحقة محل فكرة الشرك الباطلة ، واقرار السلم العام على ذلك الأساس . والوثنية عار أي عار على الانسانية والعقول البشرية ، وعثرة أية عثرة في طريق التكامل البشري ! .

لذلك لا يصح ان نتطلب من إمام كعلي أن يكون سياسياً كلويد جورج وبوانكاره وبسمارك ، أو داهية كعمرو بن العاص ومعاوية والمنصور ، والتنظير ما بينه وبين الاشخاص

الآخرين من الوجهة تنظير مغلوط مجروح لانه فوق هؤلاء في المبدأ والغاية والهدف . .

لقد قال : «والله ما أُسْتَغْفَلُ بالمكيدة ولا أُسْتَغْمَرُ بالشديدة !» فما هو بالغافل المستضعف كما يريد أن يجعله مجرّدوة من الدهاء ، ولا هو بالأفن الرأي الواهي الإرادة فيسفّ في مجال السياسة ويكبوبه جواد الذكاء والمعرفة ونفاذ النظر في ميادين القيادة والرياسة . . ولكنه شاء أمراً وشاء ذوو النفس الأمّارة غيره . . أرادهم على الفضيلة والانسانية المحضة وأرادوه على الرذيلة التي يأباها والأغراض والاهواء التي لا يرضاها فكان غير سياسي في نظرهم وإمّعة غير داهٍ في معتقدهم ! .

وبعد ؛ «فماذا أقول في رجلٍ أخفت أعداؤه فضائله حسداً ، وكتمتها أولياؤه خوفاً وحذراً ، فظهر من بين ذَين ماملأ الخافقين ! . »

دمشق

الامام علي بريشة جبران

في عقيدتي ان ابن ابي طالب كان اول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها وهو اول عربي تناولت شفتاه صدى اغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا مثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم فمن اعجب بها كان اعجابه موثوقاً بالفطرة ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية .

مات علي بن ابي طالب شهيد عظمته . مات والصلاة بين شفتيه . مات وفي قلبه الشوق الى ربه ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس اناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصىٰ . مات قبل ان يبلغ العالم رسالته كاملة وافية . غير انني اتمثله مبتسماً قبل ان يغمض عينيه عن هذه الارض . مات شأن جميع الانبياء الباصرين الذين يأتون الى بلد ليس ببلدهم والى قوم ليس بقومهم في زمن ليس بزمنهم ، ولكن لربك شأناً في ذلك وهو أعلم .

جبران خليل جبران